القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

الحكم بن هشام

١١

عبد الحميد جودة السحار

١

كان الحَكَمُ فى أوَّلِ عهدِه ماجنا ، يجهَرُ بالمعاصى ، ويَسْفِكُ الدِّماء ، ويقتُلُ العُلماء . وكان مجونُـه يبلـغُ أحيانًـا درجةَ الجُنون ؛ فكـان يُمسـك أولادَ النّـاسِ ويَخْصيهم ، وهو يُقهقِه غِبطةً وانشراحا .

ووجدَ عَمَّاه سليمانُ وعبدُ الرَّحمنِ الفُرصةَ سانحة ، لتأليبِ الشعبِ عليه . فثارا عليه ، وأيدَّ ثورتَهمـا أنَّ أهلَ الربضِ من قُرطبَة ، ثاروا بـه وخلعوه ، وبـايعوا عمَّه . فجمعَ الحكمُ جيوشَه ، وخرج لِقتالِ الثائرينَ بنفسه ؛ فانتصرَ عليهم ، وهدَم دُورَهم ومساجدَهم ؛ ففرَّ بعضُهم ، ولحِقوا بناسٍ من إفريقيَّة ، وكـان علـى أيــدى هــؤلاءِ المجــاهدين فتــحُ

جزيرة كريت (أقريطِش) .

وفرَّ عمُّ الحَكمِ إلى شارْلمان ، ودخلَ عليه فى مدينةِ إكسلا شابِل ، وطلبَ منه النَّجدة . وفى نفس الوقت ، حينما كان لويسُ بنُ شارْلمان ، ملكُ أكتيانا ، عاقدا مجمعًا فى طُلوزَة ، جاءه رسولٌ من الأذفونْش مَلكِ جلِّيقيَّةَ وأشتورية ، يَلتَمِسُ حشدَ جميع القُوَّاتِ المَسيحيَّة ، لقتالِ المُسلمين .

ولاحَ أنَّ الفرصةَ سانحةٌ للثَّأرِ من المُسلمين ، ودخولِ أسبانيا . فراح لويسُ ملك أكتيانا وأخوه كارل ، يشُنَّانِ الغارةَ على أطرافِ المُقاطعاتِ التى تشربُ من نهر إبْرُه ، وانطلق لويسُ حتَّى اجتازَ البيرانيه من جهةِ أَرَغون ؛ وفى ذلك الوقتِ وضعَ عبدُ الرَّحمن ، عمُّ الحَكَم ، يدَه على طُلَيْطُلَة ،

واستقرَّ عمُّه سُليمانُ فى بَلَنْسيَة .

خرج الَحكَمُ بنفسِه إلى البيرانيه ، وبعثَ جيشًا آخر لقتالِ عمِّه ، فاستولى على بَرْشِلونة ، وغيرِها من المدنِ الّتى أعلنَتِ العِصيان . ثمَّ قصدَ إلى الجِبال ، وأوقعَ بالَمسيحيِّين ، وسبَى منهم خلْقًا كثيرا ، واتّخذ من أَسْراهُ حرَسًا خاصًّا ؛ فكان أوّل أمراءِ قُرْطُبة الّذين اتّخذوا حرسًا خاصًّا من الأجانب .

٢

كان الحكَمُ أوَّلَ من جعَل للمُلكِ بأرضِ الأندلسِ أُبَّهة ، واستَعدَّ بالمماليك ، حتّى بلغوا خمسةَ آلاف ، منهم ثلاثةُ آلافِ فارِس ، وألفا راجل . وكان أوَّلَ من جنّدَ الأجناد ، واتّخذ العُدَّة . وكان أفحلَ بنى

أميَّةَ بالأندلُس ، وأشـدَّهم إقدامًا ونخوة ، حتـى إنّـه كان يُشَبَّهُ بأبى جعفر المنصور ، فى شدَّةِ المُلـك ، وتوطيدِ الدولة .

رأى أن يَقْضِىَ علـى مُناوئيه ، فـراح يُقاتل عمَّه سُليمان ؛ ولم يهدأْ حتى قُتِـل عمُّـه فـى إحـدى المعارك . وتفرَّغ لعمِّه الآخر ، فمـا زال يُقاتلـه حتّى فرَّ عمُّه إلى إفريقيَّة ، وعادت طُلَيْطُلَةُ إلى الطّاعة .

وكـانت بَرْشِلونةُ لقربِها من فرنسا ، من أشـدِّ البلادِ نِكايةً بالفَرَنْسِيّين ؛ فكـان يخرجُ منهـا فُرسانُ المُسلمين ، علـى خيولِهـم السريعة ؛ ينقَضّـون علـى المُدن الفَرَنْسِيَّة ثـمَّ يعـودونَ بالغنـائِم والأسـلابِ والأسـرى . فـاتَّفق لويـسُ ملـكُ أكتيانـا ، وغليـومُ كونت طلُوزة ، عى الاستيلاءِ على بَرْشِلونة ؛ وكان

شارلمانُ فى رومةَ مشغولا بتتويجِه إمبراطورًا على الغرْب .

كانت بَرْشِلونة حِصنا منيعا للعرب ، فحاصَرها الفرنسيّونَ سنتيْن ، وضَيَّقوا عليها الحِصار ، ولكنَّها صمدتْ فى وجهِ المهاجمين ، وعزَّ عليهم أَخْذُها .

وقسَّمَ الإِفْرِنجُ أنفسَهم ثلاثةَ أقسام : قسمٌ منهم راحَ يُهاجم برْشِلونة ، وقسمٌ ثان يقودُه غليوم كونت طُلوزَة ، كان يُرابط فى الممرِّ الّذى تتدفّق منه جيوشُ الحكَم ، الوافدةُ من قرْطبةَ لنجدةِ المدينةِ المحاصَرَة ؛ وقسمٌ ثالثٌ يقودُه الملكُ لويسُ نفسُه ، وكان فى أعالى جبالِ البيرانيه ، يحملُ على المسلمين كلمّا سنحتْ له الفرصة .

وتقاسمَ الإِفرنجُ أعمالَ الحصار : فراحَ بعضُهم

يضعون السَّلالم على الحصون ، وأخذ آخرونَ يجلبونَ المِيرةَ والماء ، وجعلَ آخرونَ يحفِرونَ وينقُبون الجُدران ، فاشتدَّ الحِصارُ وأُحكم ، وجاءتْ جيوشُ المُسلمينَ فعجزتْ عن الاتِّصالِ بإخوانهم المحصورين في بَرْشِلونة ، فتحولت إلى بلادِ أَشْتُورِية ، وهزمتْ أهلَها ، واستولتْ عليها .

ووقفَ أميرُ برشلونَة وحدَه ، في وجهِ القُوَى المتَألِّبَةِ عليه ، المتجمِّعةِ على قتاله . وخرج في إحدى المعارِكِ لقتالِ هؤلاءِ الَّذين أخذوا يُضيِّقونَ الْخِناقَ عليه ، فسقطَ أسيرا ، وحملوا على المدينةِ حملةً صادقة ، فسقطتْ بَرْشِلونَة ، والحَكَمُ مشغولٌ عن نجدتِها ، فإخمادِ الفِتن الَّتي كانتْ ثائرةً ضدَّه ، داخلَ بلادِهِ .

استولى الإفرنجُ على بِرْشِلونَة ، بعد أن بقيتْ تسعينَ سنةً في أيدى المسلمين . فلمّا دخلوها حوّلوا

جوامعَها كنائس ، وبعثَ الملكُ لويسُ إلى أبيه شارلمانَ من الغنائمِ دُروعًا وخُيولاً عربيَّة . وبسقوطِ برشِلونَة ، أصبح لفرنسا مِنْطَقتان فى شمالىِّ أسبانيا : كتالونْيا وقاعدتُها برشِلونة ، وغَشقونية ومن جملتِها نابارَة وأراغون .

٣

كانتِ المنافسةُ على أشُدِّها بين خُلفاءِ بغدادَ وأمراءِ قرطبة ؛ كانت منافسةً تتّسم بالأنانيَة ، والمصلحةِ الخاصَّة ؛ فكانتْ مصالحُ الإسلامِ والمُسلمينَ تضيعُ فى سبيلِ مجدٍ شخصىٍّ زائل ، أو من أجل نكايةِ أميرٍ لأمير .

ففى السَّنة الَّتى سقطتْ فيها بَرْشِلونة ، مَعقِلُ المسلمينَ الحصين ، أوفدَ هارونُ الرَّشيد ، خليفةُ المُسلمين ، وفدًا إلى شارلمان .

كان شارلمانُ قد بعثَ إلى هارونَ الرشيدِ رسولاً يهوديًا ، ومعه اثنانِ من الفَرنسيِّين ، للسَّلامِ على الخليفةِ العبّاسىّ . وأمر شارلمانُ ذلك الوفدَ بأن يمرَّ بالقُدْسِ قبلَ ذهابِه إلى بغداد ، وأن يتعهَّد أحوالَ حُجّاجِ بيتِ المقدِس ، وأن يلتمسَ من الخليفةِ تَيسِيرَ زيارةِ الحُجّاجِ لبيتِ المقدِس . وكان الفَرنسيّونَ منذ عهدِ أنِّيبالَ لم يَروْا فى بلادهم فيلا ، فكان على الوفدِ أن يجلبُوا معهم فيلا ، ليراهُ أهلُ فرنْسا .

ووصل الوفدُ إلى بغداد ، فاستقبله الخليفةُ استقبالاً رائعًا ، وأنفَذ له كلَّ طلبِه ، حتّى الفيلَ أرسلَه مع وفدٍ من عندِه ، يحملُ الطيبَ والهدايا ، ويدخُل إكسلا شابل ، مقرَّ الإمبراطور ؛ حاملاً مودَّةَ الخليفة ، التى يضعُها فوق مودَّةِ جميعِ الملوك ، وكان

ذلك فى نفسِ السَّنة التى سقطتْ فيها بَرْشِلونة .

٤

كانت طُليطُلَةُ فى ثورةٍ دائمة ، فما كان يهدأُ لها حال ، وكان أغلبُ سكّانِها من الأسبان ، فراح الحَكَمُ يفكّر فى أمرِها ، فرأى أن يأخذَهم بالحيلة ، حتى يقضِيَ على ثورتِهم ؛ فكتب إليهم : « إنَّ أعظمَ دليلٍ على اهتمامِنا بأمرِكم ، أنّنا باعثونَ إليكم واليًا من أبناءِ جنسِكم » .

وبعث إليهم عُمروس ، وكان مولَّدا ، أبوه مُسلم وأمُّه من الأسبان . وكان الحكم قد اتَّفقَ معه على أمر ، فانطلق عُمروسُ إلى طُلَيْطُلَة ، وأظهرَ للثّائرين أنّه ثائرٌ مثلَهم ، وأنّه يرقُب أوّلَ فرصةٍ ليخلعَ طاعةَ الأميرِ الحكم ، ويَستقلَّ بالبِلاد . وصار يُردِّد ذلك

القولَ ويهمسُ بـه ، ويُوسوِسُ لهـم بالنِّيات ، حتى وَثِقُوا به ، وأسلَموا له قِيادَهم .

واتّفق معهم على بناءِ قلعةٍ فى أعلى البلدة ، تكونُ المعقِلَ الأمينَ لهم ، إذا ما دهمتهُم جيوشُ السُّلطان . وبُنى الحصن ، ونـزل به عُمروس ، ثم راح ينفّذُ ما اتفق عليه مع الأمير .

وبعثَ إلى الأميرِ أن يُرسلَ جيشًا إلى طُلَيطُلَة ، بحُجَّةِ أنَّ العدوَّ تحرَّكَ بالثُّغور ، فأرسلَ الحكَمُ جيشا بقيادةِ ولدِه عبدِ الرّحمن ، وكان فى الرابعةَ عشرةَ من عمرة . فلما وصلَ الجيشُ إلى طُلَيطُلَة ، أطلقَ عمروس إشاعةً تقولُ إنَّ العدوَّ قد انسحب ، وأنَّ جيشَ الأميرِ سيعود إلى قُرْطبَة . ولَما صدّق النّاسُ هذه الشائعة ، أشارَ عُمروسُ على أعيانِ طُلَيْطُلَة ،

بأن يقدُموا للسَّلام على الأميرِ عبدِ الرَّحمن .

وأولم عُمروسُ وليمةً هائلةً فى الحِصن ، فتقاطَرَ المدعُوّون ، وراحوا يهبِطون عن ركائِبهم ، ويَدْلُفون إلى الحِصن فى أبّهةٍ وجلال . وكان يستقبلُهم فى ساحةِ الحِصن جَلاّدون قد شَهروا سيوفَهم ، يقطعونَ رقابَ الوافدين ، ويُلقون بها فى الخندق .

ولحظ طبيبٌ من أهلِ طُلَيْطُلَة عدمَ خروج المدعوّين ، فراح يسألُ النّاس :

ـ هل رأيتُم أحدًا من المدعوّين فى الحِصن قد خرج منه ؟

ـ لم نَرَ أحدا ، فقد يكونونَ دخَلوا من هذا الباب ، وخرجوا من البابِ الآخر .

فقال الطبيب : « بل لن يخرُجوا أبدا » .

وسكَنتِ الأمورُ في طلَيْطُلَة ، ولم تقمْ فيها بعد ذلك ثورَة .

٥

لم يتمتعِ الحكَم طويلاً بالرّاحةِ الّتي لاحتْ لعينيه أوّل ما تولّى الحُكم ، ولم يستطِعْ أن يستمرَّ في عبثِه ومُجونه ، فقد ألفَى نفسَه مُحاطًا بأعداءٍ يتربَّصون به ؛ وفي قلبِ مملكتِه خوَنة ، سرْعانَ ما يُهْرَعونَ إلى شارْلمان يستعْدُونَه عليه ؛ فخلعَ رِداءَ المُجون ، وارتدَى ثوبَ الجِهاد ، وراحَ يُقاتل في السُّهول والجِبال ، يوطّدُ مُلكَ بني أُميّة .

وأغار على نابارة وبنبلونة ، ودخل وَشْقَة ، وانقضَّ على عاملِه الذي انضمَّ إلى شارْلمان يسيرُ بين يديه ، فقتله ، واحتزَّ رأسَه ، وعاد إلى قُرْطُبَة مُظَفَّرا

منصورا ، مرهوبَ الجانب .

وذهب العبّاسُ الشّاعرُ إلى الثّغر ، فلما نزل بوادى الحِجارة ، سمِع امرأةً تقول :

- واغَوْثاه بك يا حَكَم ، لقد أهملْتَنا حتى كَلَبَ العدوُّ علينا ، فأيَّمنا وأيتَمنا .

فقال لها العبّاس : « ما بك ؟ » .

- كنتُ مقبلة من الباديةِ فى رُفْقة ، فخرجتْ علينا خيلُ عدّو ، فقتلتْ وأسرت .

ودخل العبّاسُ على الحكَم ، ووصف له خوف الثّغر ، واستصراخَ المرأةِ باسمه . فنادى فى الحينِ بالجهادِ والاستعدادِ ؛ فخرجَ بعد ثلاثٍ إلى وادى الحجارة ، وسأل عن الخيلِ الّتى أغارت من أىّ أرض العدوّ كانت ؟

فغزا الناحيـةَ الّتى خرجتْ منهـا الخَيـل ، وأثخـنَ فيها ، وفَتح الحصون ، وخرّب الدّيار ، وقتَـل عـددًا كثيرا . وجـاء إلى وادى الحجارة ، فـأمرَ بإحضـارِ المرأة ، وجميعِ من أسر له أحدٌ فى تلك البلاد ، وأمـر بضربِ رقابِ الأسرى ، ثم قال للعباس :

ـ سلها هل أغاثَها الحكم ؟

فقالت المرأة :

ـ واللّـه لقـد شَفَى الصدور ، وأنكـى العـدو ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه اللّه ، وأعز نصره .

فارتاحَ الحكَمُ لقولها ، وبدا السُّـرورُ فى وجهـه ، وقال :

ألَمْ تـرَ يـا عبّـاسُ أنّـى أجبتُهـا

على البُعـد أقتادُ الخميسَ المُظفّرا

فـأدركتُ أوطـارًا وَبرَّدْتُ غُلَّةً

وَنَفَّستُ مكروبًا وأغنيتُ مُعسِرا

فقال العباس :

ـ نعمْ ، جزاكَ اللّه خيرا عن المسلمين !